

الفصل الأول

معجزات الرسل





الرسل

كان من رحمة الله بالناس أن اختار منهم رسلا إليهم يبلغونهم ما حملته إليهم ملائكته من رسالات تهديهم إلى الإيمان بوحدانيته، وأنه خالق الكون وكل ما فيه من كواكب ونجوم وبشر وغير بشر، وأنه مدبره ومودع في كل شيء، فيه نظامه الثابت وقوانينه التي تعم كل ما في السموات والأرض. وقد خلق الإنسان بتركيب أو فطرة تدفعه إلى عبادة الواحد الأحد. غير أن كثيرين من البشر ضلوا الطريق إلى عبادة ربهم وتوحيده، فعبدوا كواكب وطيورا وصخورا وأحجارا. ومن رحمته بعباده أن اختار منهم رسلا يهدونهم إلى توحيده وعبادته وحملهم شرائع تحوط حياتهم بالسعادة إن هم تمسكوا بتكاليفها وتعاليمها وأوامرها ونواهيها، إذ تسمو بهم إلى كمال روحى وسلوكى وعمرانى، مع الاعتقاد الجازم بأن لهم حياة أخرى يبعثون لها بعد موتهم، وفيها يعرضون على ربهم، ويجزى كل إنسان على ما قدم في دنياه من أعمال خيرة تفتح له أبواب الجنة وأعمال سيئة تسوقه إلى عذاب النار. والناس بذلك فى الآخرة قسمان منعمون ومعذبون، والمنعمون هم الذين آمنوا برسولهم واعتنقوا كل ما فى رسالاتهم من تعاليم ربانية، والمعذبون هم الذين عصوا رسولهم وعادوهم عداً شديداً.

ووراء العالم المادى الذى نبصره عالم غيبى به ثلاثة من الأرواح: نوع خير خالص وهم الملائكة الذين يحملون ما يوحى الله به الى رسله، وهم ينصرون المؤمنين ويستغفرون الله لهم ويتوفونهم ويكتبون أعمالهم، ونوع منه الخيّر والشرير وهم الجن، فمنهم الصالحون، ومنهم غير الصالحين، ونوع ثالث شرير وهم الشياطين الذين يغوون الناس ويضلونهم عن الطريق المستقيم.

وكان الرسل ما يزالون ينصحون أقوامهم أن يسارعوا إلى الإيمان برسالاتهم، وكثير منهم - وخاصة من رؤسائهم وأغنيائهم - يعارضونهم ويحادونهم مستكبرين أن يطيعوهم وأن يتنازلوا لهم عن سيادة أقوامهم ويصبحوا من أتباعهم يأترون بأمرهم رافضين كل ما يعرضه عليهم رسلهم من ثواب الآخرة. ويذكرون لهم ما أنعم الله به عليهم في دنياهم من آلاء ونعم ينبغي أن يؤدوا له الشكر عليها. و كانوا يندرونهم ويخوفونهم من عقاب الله لهم إن لم يسارعوا إلى عبادته وطاعته وطاعة الرسل فلا يرعوا ولا ينتهوا عن كفرهم بربهم وعنادهم وغوايتهم، ومهما أنذرهم الرسول لا يكفون عن معارضة وتسفيهه، مما يجعله يفرغ إلى ربه أن ينزل بهم عقابه الأليم .

وقد اكتظ القرآن الكريم بقصص المرسلين والنبیین لا لغرض تسلية الرسول والمسلمين، بل لأغراض أسمى وأعلى ضمناها قوله تعالى في سورة هود ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) وأول الأغراض أنه أراد بها تثبيت فؤاد الرسول إزاء إيذاء قريش له ولأتباعه الذين يدخلون في دينه ببيان أنه لم يسلم رسول لقوم من إيذائهم له وإيذاء أتباعه، ويصفونه تارة بالضلال عن دين آبائه الوثني، وتارة بالحقم والسفاهة أو الكهانة أو الجنون. و يتخذون كل وسيلة لصد الناس عن الإيمان برسالته، وما يزال الرسول يدعوهم و هم ماضون في إيذائه وإيذائه، حتى يضرع الى ربه أن ينتقم منهم و ينزل بهم ما توعدهم به من العذاب.

والغرض الثاني - كما جاء في الآية السالفة - أنه موعظة للكفار والمشركين بما يصور من إصابة الأمم التي عادت رسلها وعارضتهم من ضرور العقاب كالحسف والصواعق والنوازل الأليمة، فيزدجر المشركون والمكذبون للرسل ولمحمد ورسالته من قريش وغير قريش.

(١) سورة هود الآية ١٢٠.

والغرض الثالث فى الآفة الكرفمة أن قصص الرسل فى القرآن ﴿ذِكْرَى﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ أى تذكرة لمن آمنوا بالله ورسوله وانتفعوا بهداه، إذ يعرفون مصفر الأمم التى عصت رسلها وربها وما أصابها بسبب ذلك من هلاك ودمار، كما يعرفون قوة الله التى لا تدانفها قوة إنسانية وأنه ففصر بها من ففصرون رسله وفؤفدونهم.

وما من رسول ذكرت قصته فى القرآن إلا تكثرت مرارا وهو تكرار فى الظاهر، إذ تجلب فى كل مرة لمناسبة أو سفاق ففقتضفها، فقد تساق إلى المشركفن أو إلى أهل الكتاب أو للمؤمنفن لفزادوا ففماناً. وما من رسول أرسل إلى قوم إلا طلبوا منه آفة أو آفات أى معجزة أو معجزات تشهد على صدقه وأنه مرسل إلىهم من ربه. وكل معجزات الرسل المذكورة فى القرآن ورد ذكرها فى التوراة والإنجيل ما عدا هودا وقومه عادا الذىن سكنوا فى الأحقاف بجوار عمان. وفى ذلك ما ففنقض مزاعم من قالوا إن الرسول فى قصفه كان ففنقل عن التوراة قصص الرسل، فقصة عاد وهود لا توجد فىها البتة، وسنرى اختلافات كثيرة بفن قصص معجزاتهم فى القرآن الذى ففوحى به الله إلى رسوله وفى التوراة والإنجيل، وأكثفى بعرض معجزات الرسل العظام: نوح وإبراهفم وموسى وعفسى.



معجزة نوح: الطوفان

ذُكر نوح بالقرآن فى ثمان وعشرفن سورة، وجُعلت له فىها سورة خاصة فى الجزء التاسع والعشرفن من القرآن، وهو أول الرسل المرسلفن إلى أقوامهم فى الزمن السحقق لفخرجوهم من الوثئففة وعبادة الأوثان والأصنام إلى توففد الله وعبادته، فقد أوحى الله إليه أن ففندر قومه وأن ففثقوا ربهم وففطبعوه وففطبعوا

نوحا رسولهم حتى لا يغضب الله عليهم ويذيقهم عذابا أليما. ومضى نوح يدعو قومه إلى عبادة الله وطاعته. وألح نوح على دعوتهم آتاء الليل وأطراف النهار سنوات تلو سنوات، واستجاب له بعض ضعفائهم و فقرائهم، وظلت الكثرة معرضة عنه وعن دعوته وخاصة الكبراء من أصحاب السلطة والأموال. وكانوا أهل زراعة، فكان يكثر من تنبيههم إلى آلاء الله وأمطاره التي تسقط عليهم من السماء و إلى نعمه وخيراته التي يجنونها من الأرض، وهم لا يؤمنون ولا يشكرون الله على ما يغمرهم به من بركات السماء والأرض. وكثيرا ما كان يلفتهم إلى عظمة الله وخلقه للسموات السبع وجعله الشمس نهارا سراجا للناس، حتى يأتوا أعمالهم ويصرفوها على بصيرة، وجعله القمر نورا مضيئا ليلا ليهتدى به الملاحون والسائرون في البوادي والصحارى. وكان ما يزال يذكر لقومه أن بعد الحياة الدنيا حياة أخرى ينال فيها المؤمن برسالته ودعوته ثوبا عظيما: جنة تجرى من تحتها الأنهار، وينال الراض لدعوته ورسالته عذابا أليما: نار وجحيم، وقومه يزدادون له صدا وإعراضا ومعارضة وإصرارا على تمسكهم الشديد بأهتهم الوثنية. و كل ذلك تعرضه علينا سورة نوح، وكانوا كلما دعاهم وواجههم برسالته قالوا له - كما فى سورة المؤمنون: إنما أنت بشر مثلنا تريد أن يصح لك فضل علينا ولو شاء الله لأنزل لنا ملائكة. وكانوا يزعمون أنه مجنون، ويقولون له: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ وَأَتَّبَعَكُمُ الْأَرْضُ الذَّلُولُونَ﴾^(١) الضعفاء الأخساء ويأمرونه بطردهم كما فى سورة هود والشعراء، فيقول لهم: ما أنا إلا رسول جئت لأنذرکم فكيف أطرده المؤمنین بی ومن ینجینى - إن صنعت ذلك - من غضب الله؟ وطالت مراجعة قوم نوح له وهددوه إن لم يكف عن دعوتهم للإيمان بربهم أن يرحمهم بالحجارة حتى يموت كما ذكرت سورة الشعراء حاجته إلى ربه ضارعا قائلا: ﴿فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

(١) سورة الشعراء الآية ١١١.

(٢) سورة الشعراء الآية ١١٨.

حينئذ أوحى الله الى نوح أن يصنع فلكا (سفينة) لينجو فيها هو وأهله والمؤمنون به من قومه الكافرين، وأسرع فى صنعها، وفى التوراة أن طولها كان ثلاثمائة ذراع وأن عرضها كان خمسين ذراعا وكان ارتفاعها ستة عشر ذراعا، حتى إذا جاء الأمر بعذاب قوم نوح وحدث الطوفان قال الله لنوح: احمل فيها أهلك ومن آمنوا بك، واحمل من كل المخلوقات زوجين ذكرا وأنثى ونادى نوح ابنه، وكان كافرا بدينه، أن يركب الفلك معه فعصاه قائلا: سألجا الى جبل يعصمنى من الماء، ففرق مع الكافرين.

وهذه القطعة من حوار نوح مع ابنه لإنقاذه فى سورة هود لم تذكرها التوراة، ومثلها ما اتصل بها من نداء نوح ربه لإنقاذ ابنه من الغرق قائلا: ﴿ رَبِّ إِنِّي أَنبِئُكَ مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾^(١) فأجابه ربه: ﴿ يٰ نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾^(٢) بما سولت له نفسه من الكفر ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾^(٣) اتفق مع الحكمة الإلهية أم غير متفق ﴿ إِنِّي أَعْطِكَ ﴾^(٤) خشية ﴿ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾^(٥) ويقول الله إن الفلك جرت بنوح ومن معه فى موج كالجبال، وفى الإصحاح السابع من سفر التكوين فى التوراة أن الطوفان كان أربعين يوما على الأرض وتعاظمت المياه وتكاثرت جدا وغطت جميع الجبال، فمات كل كائن على الأرض . وفى الإصحاح الثامن أن الطوفان بعد مائة وخمسين يوما أخذ يتناقص تدريجاً واستقر الفلك فى الشهر السابع على جبال أراراط . وفى القرآن أنها استقرت على جبل الجودى، ولعله من جبال أراراط،

(١) سورة هود الآية ٤٥ .

(٢) سورة هود الآية ٤٦ .

(٣) سورة هود الآية ٤٦ .

(٤) سورة هود الآية ٤٦ .

(٥) سورة هود الآية ٤٦ .

وهي جبال أرمينيا شمالى العراق. وفي الإصحاح الثامن من سفر التكوين أن رؤوس الجبال ظهرت فى الشهر العاشر، و ظلت المياه نحو شهرين تتناقص عن وجه الأرض حتى انكشف تماما لنوح ومن معه فى الفلك. وربما كان فى هذا التحديد لمدة الطوفان شىء من المبالغة أدخل على التوراة. وفى سورة هود أنه حين رست السفينة أو الفلك قيل لنوح: ﴿ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَمِعَتْهُمُ ثُمَّ يَمُتُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(١). و يشير آخر الآية أنه كان وراء أمة نوح أم أخرى سيمتتهم الله فى الدنيا ثم يبعثون فيصيبهم من الله عذاب أليم، ويخالف القرآن التوراة مخالفة صريحة فى أن النوع الإنسانى كان منتشرا فى الأرض زمن نوح، و أن طوفانه لم يعم الأرض، إنما عم إقليم نوح فى ديار أرمينيا أو ديار بكر، وسلمت منه بقية الأرض.

وأخرى تختص بامرأة نوح، فقد ذكر فى معجزة الطوفان بالإصحاحات فى سفر التكوين من السادس إلى التاسع أنها دخلت فى سفينة نوح وخرجت منها حين رسوها مع نوح والناجين من الطوفان . ومعنى ذلك أنها كانت مؤمنة به وبرسالته الربانية، بينما يقول الله فى الآية العاشرة من سورة التحريم :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾^(٢). والمتبادر أن خيانة الزوجة فى الآية الكريمة إنما كانت خيانة دينية وبما جاء إليه من رسالة. ويختتم الله معجزة الطوفان وحواره مع نوح عن ابنه الكافر بقوله مخاطبا رسوله: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَتْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾^(٣)

(١) سورة هود الآية ٤٨.

(٢) سورة التحريم الآية ١٠.

(٣) سورة هود الآية ٤٩.

وأيضاً لم يكن اليهود يعرفون كل تفاصيلها، إذ لم يذكر في هذه المعجزة التي خصَّ الله بها نوحاً إياه ابنه له ركوب الفلك معه كما رأينا فكان من المغرقين ، وأيضاً ذكر في التوراة أن امرأة نوح ركبت الفلك معه فكانت من الناجين، بينما ذكر في القرآن أن امرأة نوح خانته، ولم يذكر ذلك في التوراة، وجاء في التوراة أن هذا الطوفان عم الأرض. و كل هذه مخالفات بين القرآن والتوراة في قصة الطوفان، ومثلها مخالفات كثيرة بينهما في قصص الرسل التاليين لنوح، مما يعدُّ لبحت طريف فيها.



معجزة إبراهيم: النار برّدة وسلام

إبراهيم أبو جميع المرسلين و الأنبياء الذين بُعثوا بعده لهداية البشرية، ومؤسس الكعبة بمكة في قلب الجزيرة العربية، ولد لأب من اليهود الذين كانوا يعيشون في العراق بديار الكلدانيين وكانوا صابئة يعبدون الكواكب وأصنامها التي تمثل صورها. وكان أبو إبراهيم محترفاً صناعة هذه الأصنام ويبيعها للكلدانيين. ولما نضج عقل إبراهيم أخذ يتدبر نظام الكون، واهتدى إلى أن له خالقاً خلقه وأودع فيه نظامه، كما جاء في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِيّ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^(١) وهي رؤية بصيرة نافذة وعلم يقيني بأن للكون إلهاً يدبره، و يقول الله عن إبراهيم بعد هذه الآية: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلِينَ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ

(١) سورة الأنعام الآية ٧٥.

يَهْدِينِي رَبِّي لَا أَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَارِزَةً قَالَ

هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِلَيَّ بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾

ويدل قوله: ﴿يَنْقُومُ إِلَيَّ بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾^(١) أنه كان يسير مع فريق من قومه عبدة الكواكب وأنه أراد أن يستدرجهم إلى إنكار عبادة الكواكب الوثنية ورفضها رفضاً باتاً، فبدأ برفض عبادة كوكب مضيء ضوءاً قوياً يقال هو كوكب الزهرة، ملاحظاً أقوله وغروبه، وأنه بذلك لا يرى أعمال الناس فلا يصلح أن يكون ربا، وانتقل إلى كوكب أقوى منه نوراً وهو القمر ولاحظ أقوله أيضاً وأنه لا يصلح أن يكون إلهاً مثله، وانتقل إلى الشمس التي تملأ الكون بنورها ولاحظ أيضاً أقولها وأنها لا تستحق أن تتخذ إلهاً. وبذلك أبطل لقومه من عبدة الكواكب عبادتها جميعاً إذ تغيب يومياً عن تدبير العالم، ثم قال: ﴿إِلَيَّ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ﴾^(٢) أى خلق ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا﴾^(٣) أى مائلاً ومعتزلاً بعبادتكم عبادة الكواكب. ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٤). وتذكر الآيات التالية في سورة الأنعام أن إبراهيم دخل مع قومه في جدل عنيف، ويذكر القرآن مراراً صوراً من هذا الجدل لأبيه وقومه. ومن جدله لأبيه في سورة مريم:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ

وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٧٨﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ

يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٧٩﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ

إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٨٠﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ

يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٨١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ

(١) سورة الأنعام الآيات ٧٦ ، ٧٨ .

(٢) سورة الأنعام ٧٨ .

(٣) سورة الأنعام ٧٩ .

(٤) سورة الأنعام ٧٩ .

(٥) سورة الأنعام ٧٩ .

أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُونَ لِيْنَ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾
 قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلْكُمْ
 وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شُعِيًّا ﴿٤٨﴾

ابتدأ إبراهيم خطابه لأبيه بذكر أبوته وكررها ليشير إلى إنه مخلص له، ويقول له: إنه يعبد كواكب لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنه شيئاً، وإنه قد جاءه من ربه علم وهدى فاتبعني أهدك الصراط السليم السديد، وينصحه ألا يعبد الشيطان الذي يوسوس له بعبادة كواكب السماء، ويحذره عذاب ربه وسخطه. وقابل دعوة ابنه له للهدى بمنتهى الجفاء إذ قال له: إن لم تنته عن ترديد مثل هذه الدعوة لي لأرجمك وسأهجرك طويلاً. ووعدته وعد ابن بار بأنه سيستغفر له ربه وسيعتزله هو وقومه وأصنامهم. ويكثر القرآن من الاستشهاد بأطراف من جدال إبراهيم لأبيه وقومه في عبادة أصنام الكواكب على نحو ما نقرأ في سور الأنبياء والشعراء والصفات مبينا لهم أنهم لا يسمعون ولا يضررون أي ضرر ولا ينفعون أي نفع، وأنهم إنما يعبدون ما ينحتون بأيديهم منصرفين عن عبادة ربهم الذي خلقهم والذي يطعمهم ويسقيهم والذي يميتهم ويحييهم لحساب الآخرة وجزائهم فيها، ودائما يقولون لإبراهيم إننا وجدنا آباءنا لها عابدين. ومن ذلك ما جاء في سورة الأنبياء من قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ ﴿٥٢﴾ أَلَيْسَ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٤﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٥﴾﴾ ﴿٥٦﴾ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ

(١) سورة مريم الآيات ٤٢ ، ٤٨ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٥١ .

(٣) سورة الأنبياء الآيات ٥٢ ، ٥٤ .

وَالْأَرْضِ الَّتِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١﴾

والرشد: الهدى، فالله أتى إبراهيم رشده، وقد ندد بالكلدانيين وعبادتهم أصنام الكواكب وفي مقدمتها صنم بعل رمز الشمس التي كانوا يعبدونها ميراثا عن آبائهم الضالين، ويقول لهم بل ربكم رب السموات والأرض، وأنا على ذلكم من الشاهدين إذ أرسلنى ربي إليكم لإقامة الدين الحق دين التوحيد الإلهى .
ويسمع به النمرود ملك الكلدانيين، فيستدعيه، ويكون بينهما حوار كما فى آية سورة البقرة إذ قال له إبراهيم : ﴿ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ ﴾ (١) قال النمرود ﴿ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ ﴾ (٢) إذ أعفو على من أحكم عليه بالموت فيحىي، وأميت من أحكم عليه بالموت فيموت ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ﴾ (٣) وعجز عن معارضة إبراهيم. واقتنع إبراهيم بعد مجادلته الكثيرة لأبيه وقومه فيما يعبدون من الأصنام أنهم لن ينصرفوا عن عبادتها فصمم أن يكيدهم فيها، وكان لها بيت عندهم وعدد الأصنام فيه سبعون ومعها صنم كبير، فانتهمز خروج قومه عن البلد فى عيد لهم وحطمها جميعا بفأس كان معه وعلقه فى رقبة الصنم الكبير، وسأله من فعل ذلك بالهتهم فقال ساحرا منهم إنما فعل ذلك كبيرهم، وقال لهم ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ (٤) أفي لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴿ (٥)

وَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَىٰ أَنْ يَنْصُرُوا آلِهَتَهُمْ ضده، فجمعوا له حطبا كثيرا يحرقونه فيه، وأوقدت النار، وقيد إبراهيم بحبال متينة، وألقى به فى النار الحامية، فأحالتها الله عليه بردا وسلاما. وأضيف السلام للبرد إشارة إلى أنه كان بردا غير مؤذ.

(١) سورة الأنبياء، الآية ٥٦.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٨.

(٣) سورة الأنبياء، الآيات ٦٦ ، ٦٧ .

وجميع هذا الجدل الذى ذكره القرآن بين إبراهيم وأبيه وقومه وملكهم
المنمرد لم تذكر التوراة منه شيئاً مما يدل بوضوح على أن قصص التوراة
والقرآن فى حاجة إلى كتاب يقارن بينهما مقارنات دقيقة.



معجزات موسى

موسى كليم الله الذى خصه بالكلام إليه من بين الرسل جميعا وهو ابن عمران
أحد أفراد الجالية اليهودية التى أنزلها يوسف فى مصر بالقرن الثامن عشر قبل
الميلاد والمظنون أنه أنزلهم فى الشرقية، وتكاثروا طوال أربعة قرون أمضوها فى
مصر بعد يوسف، ونزلت طائفة منهم فى منف عاصمة مصر الشمالية كان من
سلالتها عمران، وتزوج يوكابد إحدى قريباته، وأنجبت له ابنه هارون. وبعد
نحو سنتين أنجبت له موسى. وكان فرعون قد أصدر أمرا بذبح أبناء الإسرائيليين
حين يولدون واستحياء بناتهم. وخشيت على موسى أن يقتل فيمن يقتلون بأمر
فرعون، فأخفت ميلاده ثلاثة أشهر، وشملها الله بعونه، فأوحى - كما فى
سورة طه - إليها ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَأَلِيْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ
عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾^(١) ويقول الله عقب ذلك إنه ألقى عليه محبة منه وليصنع
على عينه برعايته وتعهدده، سعادة ما وراءها سعادة. وكانت الأم كلفت أخته بأن
تتبع أثره، فرأت اليم يلقي بالتابوت إلى الساحل بين الحلفاء النابتة تحته،
وتصادف أن امرأة فرعون نزلت إلى نهر النيل لتغتسل وحولها جواربها، فرأته
فأمرت الجوارى أن يحملنه إليها، وجئن به، ولما فتحت التابوت وجدت فيه
طفلا يبكى، فعطفت عليه، وقالت من أبناء العبرانيين - كما فى الإصحاح

(١) سورة طه الآية ٣٩.

الثانى من سفر الخروج، وقالت لفرعون - كما فى سورة القصص - ﴿قُرْتُ عَيْنِي وَكَانَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾^(١) وفى سفر الخروج أنها لم تكن امرأة فرعون إنما كانت ابنته، وهو تحريف دخل فى التوراة، ويصحح القرآن قصة موسى فى التوراة بمواضع متعددة. وعرضت على موسى مراضع يرضعنه فأباها جميعا، وكانت أخته مريم تتبع أثره، فلما رأته يأبى المراضع اللاتى يحاولن رضاعته قالت لهم هل أدلكم على امرأة عبرانية ترضعه وتكفله، ووافقوها، وجاءته، وأقبل عليها يرضع منها، فأعطوه لها نظير أجر تأخذه.

ولما أتمت أم موسى رضاعته جاءت به إلى قصر فرعون وسلمته لزوجته وتولى البلاط تربيته وشبَّ فيه، وسمته زوجة فرعون موسى. وفى سورة الشعراء يقول له فرعون: ﴿أَلَمْ نُزَيِّكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾^(٢).

وكان موسى قد عرف من أمه أنه عبرانى، وكان يتردد عليها فى أثناء مقامه بقصر فرعون، وعرف منها تاريخ قومه وجالياتهم بمصر المضطهدة من فرعون وملئه. وفى أثناء ذلك كملت قوته ونضج عقله، ودخل المدينة - ولعلها منف - فوجد فيها رجلين يقتتلان: أحدهما إسرائيلى من شيعته، والثانى مصرى من عدوه، فانتصر للإسرائيلى وضرب المصرى بقبضة كفه ضربة كان فيها حتفه فمات. وتأسف موسى وقال فى نفسه ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾^(٣) الذى أغوانى بالاعتداء على المصرى. وبينما كان يتقرب الأخبار فى اليوم التالى إذا الإسرائيلى الذى نصره بالأمس على القبطى يستصرخه: يستغيث به على قبطى آخر، وفى الإصحاح الثانى من سفر الخروج أنه كان يستغيث به على

(١) سورة القصص الآية ٩.

(٢) سورة الشعراء الآية ١٨.

(٣) سورة القصص الآية ١٥.

إسرائيلى. وتدخّل موسى. ولما أراد أن يببّطش بالمصرى - وهو الصحيح كما فى سورة القصص - قال له ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾^(١) فكفّ وتراجع وعرف أن قتله المصرى شاع فى الناس، وأنه لابد سيحاكم.

وجاء موسى ناصح من أقصى مدينة منف يسعى إليه مسرعا وقال: إن الملائكة حاشية فرعون أصحاب الأمر والنهى فى المدينة علموا بقتلك المصرى ويتشاورون كيف يقتلونك فأسرع بالخروج من المدينة. وأسرع متوجها بعيدا عن سيناء وفلسطين إلى مدين فى الحجاز جنوبى خليج العقبة. وما زال جادا فى السير أياما وليالى حتى وصل إلى مدين وبثرها الذى يستقى منه الناس، ووجد عليه جماعة كبيرة من أهلها مع أغنامهم يسقونها من مائها، ورأى فى مكان أسفل منهم امرأتين (وفى سفر الخروج كن سبع بنات!) معهما غنم تكفانه وتمنعانه من أن يسارع مع غنم الجماعة إلى الشرب من الماء. ورقّ لهما وسألهما لماذا لا يسقيان غنمهما مع غنم الناس، فأجابتاها لا نسقى غنمنا إلا بعد أن تنتهى الجماعة من سقى أغنامهم، وليس معنا رجل يسقى لنا وأبونا شيخ كبير. فسقى لهما غنمهما، وجلس فى ظل شجرة، وكانت ابنتى يثرون كاهن مدين - كما فى الإصحاح الثانى من سفر الخروج - ورجعت الفتاتان إلى أبيهما وقصتا عليه ما فعل موسى لهما، فبعث إليه إحداهما لتدعوه، وقالت لموسى خجلة إن أبى يدعوك ليعطيك أجر ما سقيت لنا، فجاء وقص عليه قصته، فقال له نجوت من القوم الظالمين. وقالت لأبيها الفتاة الكبرى التى استدعته وتسمى صفورة: يا أبتي استأجره إنه قوى أمين. وفى أثناء الحديث قال له إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتى هاتين على أن تظل أجيرا عندى ترعى الغنم ثمانى سنوات أو عشرا. ورضى موسى من يثرون صهره هذا العرض، وتزوج صفورة. وقضى

(١) سورة القصص ١٩.

موسى فى رعى غنم يثرون عشر سنوات ، وكلمه الله قائلا إن كل من كانوا يطلبون دمك فى منف ماتوا، فارجع إلى مصر واجعل فرعون يطلق سراح بنى إسرائيل ليعبدوا ربهم حق عبادته .

وارتحل موسى - ومعه زوجته صفورة وبنوه - إلى مصر، ولما اقترب فى إحدى الليالى من جبل الطور فى الغرب من سيناء رأى نارا متقدة تضىء على بعد فقال لأهله امكثوا مكانكم فإنى رأيت نارا سأذهب إليها وحدى لعلى آتيكم منها بخبر أو بجذوة من النار تتدفنون بها . وأتاها فنودى من شاطئ الوادى الأيمن مما يلي جبل الطور عن يمينه من ناحية الغرب فى البقعة المباركة من الشجرة، ووقف مبهوتا ونودى إني أنا الله رب العالمين ﴿ وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى ﴾ (١) كما فى سورة طه ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَارِبُ أُخْرَى ﴾ (٢) قَالَ أَلَيْهَا يَمْوَسَى ﴿ ١٦ ﴾ فَالْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿ ١٧ ﴾ وخاف منها خوفا شديدا فقال له الله : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ (٣) وعادت عصا كما كانت . وهى أول معجزة لموسى إزاء ما اشتهرت به مصر حينئذ من سحر السحرة إذ تتحول عصاه التى فى يده إلى حية أو ثعبان كبير . وضم الله إليها لموسى معجزة ثانية هى أنه إذا ضمَّ يده إلى أعلى صدره فى جيبه تخرج بيضاء كالثلج من غير سوء أى من غير برص يعتربها. وقال الله له اذهب إلى فرعون واعرض عليه هاتين الآيتين، واسأله أن يطلق بنى إسرائيل. ويطلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون لأنه أفصح منه وأقدر على صوغ الحجج والبراهين، ويجيبه إلى سُؤله. ويستقبله هارون استقبالا كريما هو وأسرته ويصبح شريكا له فى رسالته، ويأمرهما الله أن يلقيا فرعون ويطلبا منه أن يطلق

(١) سورة طه ١٧ .

(٢) سورة طه الآيات ١٨ ، ٢٠ .

(٣) سورة طه الآية ٢١ .

بنى إسرائيل ليعبدوا ربهم فى البرية، ويأمرهما الله بالتلطف فى الكلام. وكان فرعوناً جديداً بعد فرعون الذى مات وموسى فى مدين، ودخلا عليه وقال له موسى - كما فى سورة الأعراف - ﴿يَنْفِرُ فِرْعَوْنُ بِرَبِّهِ مِنْ رَّبِّكَ فَاذِلَّ مَعِيَ إِسْرَائِيلَ﴾^(١). ويذكر فرعون موسى بتربيته فيهم، ويسأله كما فى سورة الشعراء ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) ويجيبه موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾^(٣) فقال فرعون للئله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾^(٤) لأنه يقول كلاماً لا نقله ولا نقره، واستمر موسى قائلاً: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٥). ويذكر القرآن حواراً متعدداً بين فرعون وموسى، من ذلك ما جاء فى سورة طه عقب سؤال موسى وهارون لفرعون أن يطلق بنى إسرائيل ولا يعذبهم فى الأعمال الشاقة، وسألها ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْوِسَى﴾^(٦) فأجابها ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾^(٧) ثم هداه إلى معرفة كل ما يلزمه، وسألها ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾^(٨) والأمم السابقة، فقال موسى ﴿عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾^(٩) مسجلة فى كتاب لا تخفى عنه فيها خافية. ويقول له هو الذى مهد لكم الأرض لتزرعوها وأنزل لكم من السماء ماء لتخرجوا به زروعاً شتى وترعوا أنعامكم كما تشاءون، وقد خلقكم من الأرض

(١) سورة الأعراف الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥.

(٢) سورة الشعراء الآية ٢٣.

(٣) سورة الشعراء الآية ٢٦.

(٤) سورة الشعراء الآية ٢٧.

(٥) سورة الشعراء الآية ٢٨.

(٦) سورة طه الآية ٤٩.

(٧) سورة طه الآية ٥٠.

(٨) سورة طه الآية ٥١.

(٩) سورة الأعراف الآية ١٨٧.

ويميتكم ثم يبعثكم للعقاب والثواب. ويقول لهما فرعون أترفضان عبادتي؟ إنى سأسجنكما وأعذبكما عذاباً شديداً، ويقول له موسى ألا تؤمن بالله إذا جئناك بمعجزات بيّنة، ويعرض عليه معجزتي العصا واليد البيضاء، وكان ملاً فرعون من حولهما يستمع إلى حديثهما. فألقى موسى عصاه، فإذا هي ثعبان متحرك، ونزع يده من جيبه فإذا هي بيضاء للناظرين، فقال الملك للملأ إنه ساحر عليم، فقالوا له أرسل فى المدن يأتوك بكل ساحر عندهم، وكانت مصر حينئذ مشهورة بالسحر والسحرة، وقالوا لفرعون اجعل لهم يوماً يتبارون فيه مع موسى بسحرهم. وجمع السحرة، وعُرف أنهم سيلقون موسى فى يوم عيد، ولعله يوم وفاء النيل، وجاء السحرة بعصيهم وحبالهم، وقالوا لموسى: إما أن تلقى عصاك، وإما أن نكون أول الملقين، فقال لهم: بل ألقوا أنتم، وألقوا عصيهم وحبالهم واستحالت فى التو ثعابين وأفاعى، فعجب الناس. وأوحى الله إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تبتلع ثعابينهم وأفاعيهم، فقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون. وغضب فرعون، وقال للسحرة إنه كبيركم الذى علمكم السحر وتوعدهم بعقاب أليم. وعرض عليه موسى وهارون ما جاءه به من قبل الله وسألاه أن يرفع العذاب عن بنى إسرائيل ويطلق سراحهم حتى يخرجوا من مصر لعبادة الله، فأبى. وعاد موسى وهارون إلى قومهما، ويبدو أنهما ظلا فترة غير قليلة بينهم، وكان فيها موسى يسأل الله أن يصرف عن فرعون والمصريين ما نزل بهم من آيات جديدة بعد العصا السحرية واليد البيضاء. وكان فرعون فيها يستغيث بموسى كلما نزلت به وبقومه آية أن يسأل ربه رفعها ويرفعها، ويعود قائلاً: أنا الرب الأعلى.

وجمع الله الآيات أو معجزات موسى السبع بعد العصا السحرية واليديد البيضاء في سورة الأعراف قائلاً جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّيِّئِ وَنَقِصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾^(١) أى بالجذب ونقص الزروع والبساتين. واستغاث فرعون بموسى، فدعا ربه أن يرفع عنهم الجذب ويكمل لهم الثمرات، واستجاب الله له، وظل فرعون وملؤه في غيهم.

ويقول الله في سورة الأعراف عقب ذلك: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ عَائِسَاتٍ مُّفَصَّاتٍ﴾^(٢): خمس آيات أو معجزات أولها الطوفان، وهو فيضان شديد للنيل بعد الجذب أهلك الزرع والضرع، فاستغاث فرعون بموسى أن يرفع هذا الفيضان الشديد، ورفع، وعاد فرعون إلى غوايته. ولم تذكر هذه المعجزة في سفر الخروج. ومثلها معجزة الجذب ونقص الثمرات. ودعا موسى ربه أن ينزل على فرعون ومصر الجراد، وكان قد هدد فرعون بنزوله إن لم يطلق سراح بنى إسرائيل لعبادة الله. وذكره سفر الخروج فى الإصحاح العاشر، وأن أفواجه غطت جميع أرض مصر، وهى حشرات طائرة أكلت العشب والنباتات وأوراق الشجر وثمارها وملأت قصر فرعون وبيوت المصريين. فدعا فرعون موسى وهارون وقال لهما إنى أخطأت فى حقكما وحق إلهكما، فصليا لى واسألاه أن يرفع الجراد عن مصر، وصلى موسى ودعا ربه فأرسل ريحا غربية شديدة حملت جميع الجراد حتى لم تبق بمصر جرادة، وعاد فرعون إلى بغيه واستعلائه. ومعجزة موسى التالية إرسال الله على فرعون ومصر القمل وهو ضرب من القراد يمص دماء الدواب، وسماه الإصحاح الثانى فى سفر

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٠.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٣.

الخروج بالتوراة باسم البعوض خطأ. واستغاث فرعون بموسى أن يرفع البعوض والذباب عن مصر، ويبدو أن مصححي سفر الخروج من العبرانيين حين رأوا فيه القمل الوارد فى معجزات موسى بالقرآن لم يفهموه فوضعوا مكانه البعوض ولم يتأكدوا من ذلك فأضافوا إليه الذباب . ومعجزة موسى التالية - كما فى الآيه السالفة - الضفادع، وهى مذكورة فى الإصحاح الثامن من سفر الخروج وفيه أن موسى هدده به إن لم يطلق سراح شعبه، فأبى، ففاض النهر ضفادع ودخلت داره وفراشه وعلى سريريه، وبالمثل دور المصريين ودعا فرعون موسى وهارون وقال لهما صلياً للرب ليرفع الضفادع عنى وعن مصر لأطلق بنى إسرائيل، ودعا موسى ربه، فماتت جميع الضفادع فى الدور والحقول، وبقيت - كأصلها - فى النيل. والمعجزة التالية الدم، وفى الإصحاح الرابع أن الله يقول لموسى: إذا لم يسمعوا (أى فرعون وملؤه) لقولك تأخذ من ماء نهر النيل وتسكبه على اليابسة فيصير دماً. وأعاد سفر الخروج هذه المعجزة فى الإصحاح السابع حيث يقول الله لموسى: إن فرعون يخرج لرؤية ماء النيل فى الصباح فخذ عصاك معك وقف بازائه وقل له إن إله العبرانيين أرسلنى إليك لتطلق شعب بنى إسرائيل ليعبدوه فى البرية، فإن لم يستمع إليك ضربت بالعصا التى فى يدك ماء النهر فيستحيل دماً ويموت فيه السمك وينتن النهر. وعمل موسى وهارون بما أمر الله به وفرعون وملؤه ينظرون، واستحال ماء النهر دماً ومات السمك وأنتن النهر. والإصحاح السابع توسع فى خبر الدم، وتحول ما يحمله موسى منه دماً كما فى الإصحاح الرابع. والآيه أو المعجزة التالية لموسى بمصر رجز أرسله الله على أهل مصر وأنعامها، وهو وباء مميت، فاستغاث فرعون بموسى أن يكشفه عن مصر وكشفه الله. وهكذا كان موسى ينزل على فرعون ومصر بجانب العصا السحرية واليد البيضاء آيات عذاب وكان فرعون يعده -

مع كشفه عنه وعن مصر - أن يطلق معه بنى إسرائيل محررا لهم من استعبادهم بمصر، ويعد فرعون موسى مع كشفه لكل آية أن يطلق سراحهم ولا يفى بوعده .

وتضطرب آيات موسى أو معجزاته بعد العصا واليد البيضاء فى سفر الخروج إذ لم تذكر فيه آية السنين ونقص الثمرات وآية الطوفان، واضطربت آية الدم، فهى تارة تكتفى بأخذه ماء من النيل وسكبه على الأرض فيستحيل دما وتارة تتسع فيستحيل ماء نهر النيل دما ويموت فيه السمك، ولا تذكر فى سفر الخروج آية القمل وتوضع مكانها فى سفر الخروج آيتان: آية البعوض وآية الذباب، وتضاف إلى آيات سفر الخروج آية برد يُهْلِك الدواب والأنعام فى جميع أرض مصر، وأرضها - حتى اليوم - لا تعرفه، كما يضاف إظلام أرض مصر ثلاثة أيام متعاقبة، لا تطلع فيها الشمس ولعل ذلك مبالغة. ويضاف فى الإصحاح الثانى عشر موت كل بكر من الناس. وفى كل ذلك اضطراب بالقياس إلى آيات موسى فى القرآن ومعجزاته.

ويئس موسى وهارون من إطلاق فرعون بنى إسرائيل معهما لعبادة الله وخلصهم من تسخيره وتسخير المصريين لهم فى أعمالهم الشاقة واستعبادهم وإذلالهم، فصمما على الخروج من مصر مع قومهما ليلا سرا وأخذا فى التدبير لذلك، وتواصى شعبهما أن يستعيروا من المصريين حليا كثيرة قبل رحيلهم ولا يردوها كما فى الإصحاح الحادى عشر من سفر الخروج، وسيأخذ السامرى منهم هذه الحلى ليصنع منها لهم تمثالا ليعبدوه مثل عجل أبيس فى سيناء حين ذهب موسى لميقات ربه، وغاب عنهم أربعين يوما. واحتمل موسى معهم تابوت يوسف فى رحليهم حسب وصيته، وخرجوا ليلا متجهين إلى البحر الأحمر لعبورهم إلى سيناء وعلم فرعون برحيلهم، فجمع ما استطاع من جنوده

محاولاً للحاق بهم وردهم إلى مصر لتسخيرهم، ولحقهم عند شروق الشمس كما فى سورة الشعراء بالقرب من البحر الأحمر، وقال أصحاب موسى: سيدركنا فرعون وجنوده. وقال لهم موسى إن معى ربى سيهدىنى، وأوحى الله إليه أن يضرب البحر الأحمر بعصاه فانفلق، وكان كل فلق منه كالجبل العظيم، وانكشف لهم فيه طريق، فأمرهم موسى بسلوكه إلى الشاطئ المقابل فى سيناء، واجتازوه ونجوا، وتبعهم فرعون بجنوده فى نفس الطريق، وأمر الله البحر أن ينضم فلقاه عليهم وانضما وغرقوا جميعا، وهى معجزة كبرى صنعها الله - جل شأنه - لموسى وبنى إسرائيل. وتتوالى معجزات الله له فى رحلته مع قومه بسيناء فيشكون له العطش، فيوحى الله إليه أن يضرب بعصاه حجرا كبيرا، وضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا لبنى إسرائيل بعدد أسباطهم أو عشائرهم، لكل سبط أو عشيرة عين خاصة. وطلبوا منه أن يظلمهم الله فى صحراء سيناء الحارة، فأظلمهم بسحاب كان يسير معهم، وطلبوا منه أن يمدهم الله بطعام فأمدهم بصمغ حلو كان ينزل على شجر سيناء يسمى المن، كما أمدهم بطير السمان أو طير يشبهه، وهو قوله تعالى فى سورة البقرة مخاطبا بنى إسرائيل: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾^(١). ووراء هذه المعجزات معجزات أخرى لموسى فى طريقه بقومه إلى فلسطين، ولعل أكبر معجزة حدثت له فى سيناء هى لقاءه لربه فى جبل الطور طوال أربعين ليلة، وإهداء الله له ولبنى إسرائيل ألواح التوراة وما تحمل من وصايا الله وتعاليمه. ويذكر الله فى سورة البقرة أنهم بدلوا وحرفوا فيها كثيرا.

(١) سورة البقرة الآية ٥٧.



معجزات عيسى

قرن الله - عز شأنه - فى سورة آل عمران هؤلاء الآل بآل إبراهيم وبنوح وآدم فى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١) والمقصود بعمران فى الآية ليس عمراناً أباً موسى وهارون، وإنما عمران بن ماتان أبو مريم وجد ابنها عيسى، وكان من أحبار اليهود، ومن سلالة سليمان بن داود، تزوج حنة بنت فاقوذا، وتوفى عنها وهى حامل منه. فنذرت ما فى بطنها محرراً لخدمة بيت المقدس - كما فى سورة آل عمران - وكانوا يندرون مواليدهم إن كانوا ذكورا لهذه الخدمة. وفوجئت فى وضع حملها بأنها أنثى فخطبت ربها قائلة: ﴿وَإِنِّي سَمِيئُهَا مَرِيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٢) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا^(٣) أى أنشأها إنشاءً بديعاً، وحررتها أمها لخدمة المسجد، فتنازع أحبارهم أيهم يكفلها، وأجروا القرعة بينهم، فخرجت باسم زكريا زوج خالتها، واتخذت لها محراباً تخلو فيه لعبادة ربها، وكان زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها طعاماً فيقول لها من أين لك هذا فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٤). ولما شبت وبلغت مبلغ النساء كانت الملائكة تدخل محرابها وتقول لها - كما فى سورة آل عمران: ﴿يٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^(٥). وكانت تملأ أوقاتها بذكر الله وعبادته طاهرة مطهرة محروسة برعاية الله.

(١) سورة آل عمران الآية ٣٣.

(٢) سورة آل عمران الآية ٣٦ ، ٣٧.

(٣) سورة آل عمران الآية ٤٢.

وذات يوم تمثل لها في محرابها جبريل ﴿بَشْرًا سَوِيًّا﴾^(١)، كما في سورة مريم، ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾^(٢) فتعجبت وقالت كيف ﴿أَنْتِ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشْرٌ﴾^(٣) قال لها إنها إرادة الله، فنجعله آية للناس ورحمة ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾^(٤). وفي سورة آل عمران على لسان الملائكة والمراد جبريل ﴿إِنَّ أَلَّهَ يُبَيِّنُ لِكَلِّمَةٍ مِنْهُ أَسْمَهُ الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٥٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾^(٥). ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾^(٦).

وحملته ومرت الأيام، ولما آن الوضع ألجا المخاض مريم إلى جذع نخلة في بيت لحم بالقرب من بيت المقدس لتستتر بها، وشعرت بشيء من الحزن لما سيظن بها أهلها من الظنون، فناداها جبريل لا تحزني، فالما مد يدك ﴿وَهَرِي إِِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِني نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾^(٧). وأنت به أهلها تحمله على يدها، فارتاعوا ارتياعا شديدا لما يعرفون من طهرها وقالوا لها - لائمين ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾^(٨) أى أمرا منكرا. فأشارت إلى ابنها أن يجيبهم فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي

(١) سورة مريم الآية ١٧.

(٢) سورة مريم الآية ١٩.

(٣) سورة مريم الآية ٢٠.

(٤) سورة مريم الآية ٢١.

(٥) سورة آل عمران الآيتان ٤٥ ، ٤٦.

(٦) سورة آل عمران الآية ٤٨.

(٧) سورة مريم الآيتان ٢٥ ، ٢٦.

(٨) سورة مريم الآية ٢٧.

نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنِي مُبَارَكًا أَيَّنَّ مَا كُنْتُ وَأَوْصَيْتَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا
بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾.

وكل ما تقدم في ميلاد مريم ونذر أمها لما في بطنها وعبادتها لربها في محرابها
ولقاء الملائكة وجبريل لها وبشراها بحمل عيسى وولادتها له وكلامه في المهد،
كل ذلك مما جاء في سورتي آل عمران ومريم ولم يذكر منه شيء في الأناجيل
وكتب النصارى، وبحق يقول الله لرسوله: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ (٣٣).
وواضح ما جاء في تلك الآيات من معجزتين عظيمتين: معجزة ميلاد المسيح بكلمة
التكوين الإلهية دون أب، وفي ذلك يقول الله في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى
عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٣٣) دون أب وأم، وعيسى
دون أب فحسب، وتلك مشيئة الله ولا راد لمشيئته. والمعجزة الثانية لعيسى كلامه
في المهد مما لم يحدث لأى إنسان أن يتكلم وهو طفل رضيع. واسمه فى العربية
كما ذكرنا مرارا عيسى، وهو يقابل اسمه يسوع فى العبرية ومعناه المخلص
لأتباعه من آثامهم. والمسيح لقبه أى الممسوح بالزيت. وقال الله إنه كلمة منه
ألقاها إلى مريم، ولذلك قد يسمى الكلمة، وقال عنه أيضا إنه روح منه. وكل
ذلك تشريف له ما بعده تشريف .

ويقال إن هيرودس الحاكم الرومانى لفلسطين أمر بقتل كل طفل فى بيت
لحم، فرحلت به أمه فى صباه مع يوسف النجار إلى مصر خوفا من هيرودس،
وفيهما استقرت مع ابنها فى قرية عين شمس إلى أن هلك هيرودس، فرجعت
بابنها إلى بيت لحم. واستظلوا فى عين شمس آنذاك بشجرة سميت شجرة

(١) سورة مريم الآيات ٣٠ ، ٣٣ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٤٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٥٩ .

العذراء، ويظل أصلها ماثلاً إلى اليوم فى الضاحية المعروفة باسم المطرية،
ويتبرك بعض الناس بزيارتها.

ولا تكاد تذكر أخبار عن عيسى قبل نبوته فى سن الثلاثين إلا ما كان من
تعميد يوحنا المعمدان له، وهو يحيى بن زكريا ابن خالته، إذ يقال: إنه ظهر
فى الأردن وأخذ يدعو الناس إلى التوبة، وخرج إليه أهل بيت المقدس فكان
يعمدهم وعمد معهم عيسى، ويمكن أن يكون ذلك بدء نبوته. وصعد مع أمه إلى
جبل الزيتون فى القدس، وغمرها عليه نور عظيم، وأحاطت به جماعة من
الملائكة تنادى ليتمجد الله، وقدم له جبريل كتابا هو الإنجيل ومعناه البشارة .

ولا يذكر هذا الخبر فى القرآن عن لقائه ليحيى بن زكريا وعن تقديم جبريل
له الإنجيل ويذكر - كما فى سورة الصف - أنه رسول إلى بنى إسرائيل
كما يذكر مرارا أنه مصدق لما بين يديه من التوراة وأنه يحمل إليهم الإنجيل
فيه هدى ونور، وقد جاءهم ليعيدهم إلى شريعة التوراة فلا يحرفوها ولا ينحرفوا
بها عن معانيها السديدة، ولا يحلوا ما حرم الله ولا يحرموا ما أحل، ويعملوا
الخير يوم السبت يوم عطلتهم ولا يحرموه . ولا يفرطوا فى حب المال واكتنازه،
ولا ينهبوا أى مال وخاصة النذور، وينفقوه على أسرهم وأبنائهم فإنهم بذلك
يعطلون الشريعة. واحذروا إنكار القيامة وما بها من الثواب والعقاب ولا تلهكم
الدنيا ومتاعها وزخرفها وشهواتها. ويعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ويحبوا
الرب إلههم من كل قلوبهم ومن كل نفوسهم ومن كل أفكارهم إلى غير ذلك من
وصايا وتعاليم تكتظ بها الأناجيل من مثل الزهد فى متاع الدنيا واجتناب
الكبرياء والاستعلاء والظلم، وطاعة الله والتوكل عليه والتواضع. واستجاب إليه
كثيرون فى مقدمتهم حواريوه أو تلاميذه الذين آمنوا به ونصروه ونشروا دعوته
فى قرى اليهود وبفلسطين، وعدتهم اثنا عشر وهم المذكورون فى أول الإصحاح
العاشر بإنجيل متى، ومعنى لفظ الإنجيل البشارة لتصحيح ما حرف اليهود من

التوراة ونبذوه من تعاليمها، مما يستدعى إصلاح ما دخل عليها من تحريفات وإفساد.

والأناجيل المعتمدة لدى الكنيسة المسيحية أربعة: إنجيل متى أحد تلاميذ عيسى الاثنى عشر من دعائه، وهو أقدم الأناجيل الأربعة وأوثقها، والأناجيل الثلاثة: إنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا، وتكتنظ جميعا بمعجزات عيسى. ونعرضها كما جاءت في القرآن الكريم، ونقابلها بما جاء في إنجيل متى أوثق الأناجيل، وقد ذكرت في القرآن بسورتين: سورة آل عمران وسورة المائدة. وفي السورة الأولى على لسان عيسى:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١).

وفي سورة المائدة يقول الله لعيسى معدداً المعجزات التي أنعم بها عليه:

﴿أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمَكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَانَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ (٢)

ومعجزة كلام عيسى في رضاعته بالمهد مرت بنا ومعها معجزة ميلاده بدون أب وأول معجزة لعيسى في آية سورة آل عمران، أنه كان إذا خلق من الطين وأبدع ما يشبه صورة الطير ثم نفخ فيه فإنه يصبح طيراً حقيقياً، وذلك كما يقول

(١) سورة آل عمران الآية ٤٩.

(٢) سورة المائدة الآية ١١٠.

عيسى بإذن الله حتى ينفى توهم مشاركته لله فى خلق الكائنات. ولم تذكر الأناجيل هذه المعجزة العظيمة لعيسى وذكرها القرآن لأن الله - وحده - هو الذى يعرف كل ما أجرى على يديه من معجزات بإذنه.

والمعجزة الرابعة بعد ميلاد عيسى وكلامه فى المهد وخلقه للطير إبراء الأعمى من آفة فقد بصره مما لا يستطيعه الأطباء وخاصة على من يولد أكمه فاقتدا بصره، وقد رده عيسى بإذن الله .

والمعجزة الخامسة الشفاء من داء البرص وهو بقع شديدة البياض تظهر على جلد الإنسان وهو غير معد ولم يكتشف الطب حتى الآن دواء يزيله، وأزاله عيسى بإذن الله .

والمعجزة السادسة التى تقابل خلق الطين طيرا وبث الروح فيه وإيجاد الحياة به إحياء الموتى بإذن الله. ففي الإصحاح التاسع من إنجيل متى: "وبينما يكلم أتباعه والناس إذا رئيس قد جاء فسجد له (هكذا) قائلا إن ابنتى الآن ماتت ولكن تعال وضع يدك عليها فتحيا، فتبعه هو وتلامذته، فأمسك يدها فقامت وشاع ذلك الخبر . وفى الإصحاح السابع عشر من إنجيل متى: أخذ عيسى بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين، وتغيرت هيئته أمامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور وإذا موسى وإيليا قد ظهرا لهم يتكلمان معه".

ويقول عيسى فى آيات آل عمران لبنى إسرائيل: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾^(١) أى أنه ينبئهم بأحوالهم التى لا يعرفها أحد من مثل ما يأكلون فى بيوتهم وما يحتفظون به وما يدخرونه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١) أى إن كنتم تريدون الإيمان بى وبما جننكم به من الإيمان بالإنجيل وتعاليمه وعظاته.

(١) سورة آل عمران الآية ٤٩.

وبجانب المعجزات السابقة لعيسى تذكر الأناجيل معجزات أخرى، من ذلك ما جاء فى الإصحاح الثامن من إنجيل متى من شفائه لفلوج ومحمومة، وفى الإصحاح التاسع من شفائه لمجنون أحرس، ومن ذلك ما جاء فى الإصحاح الرابع عشر بإنجيل متى من أن تلاميذه قالوا له يوماً اصرف الجموع ليذهبوا إلى القرى ويبتاعوا لهم طعاماً، فقال لهم لا حاجة لهم أن يمضوا إلى القرى أعطوهم أنتم ما عندكم من الطعام فقالوا له ليس عندنا إلا خمسة أرغفة وسمكتان، فقال لهم إيتونى بها، ورفع بصره نحو السماء وبارك، وأعطى الأرغفة لتلامذته، وأعطتها التلامذة للجموع فأكل الجميع وشبعوا، وكانوا نحو خمسة آلاف سوى النساء والأولاد .

وفى سورة المائدة خبر مائدة طلب الحواريون من عيسى إنزالها عليهم من السماء والخبر يمضى بهذه الصورة .

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُولُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾
 قَالُوا ثَرِيدٌ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا
 وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا
 أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً
 مِنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ
 فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مَنكُم فَأَيُّ عَذَابٍ لَّا أُعَذِّبُهُ وَأَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

وقد كانت معجزات عيسى الكثيرة سبباً فى أن يفتتن به بعض من عاصروه وجاءوا بعده من أتباعه فقالوا إنه ابن الله أو الله ذاته، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ما يقولون إلا كفرةً وكذباً وبهتاناً وإثماً كبيراً.

(١) سورة المائدة الآيات ١١٢ ، ١١٥ .